



خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ:

«أَثْرُ اسْتِقْرَارِ الْأُسْرَةِ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ»

لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْقَطَاوِيِّ

مُدِيرِ جَرِيدَةِ "صَوْتِ الدُّعَاةِ"

بتاريخ الجمعة ٢٦ ذو الحجة ١٤٤٧هـ، الموافق ١٢-٠٦-٢٠٢٦م

خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ: «أَثْرُ اسْتِقْرَارِ الْأُسْرَةِ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ»

بِقَلَمِ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ: مُحَمَّدِ طَلَعَتِ الْقَطَاوِيِّ

مُدِيرِ عَامِّ جَرِيدَةِ «صَوْتِ الدُّعَاةِ» الْإِلِكْتُرُونِيَّةِ

www.facebook.com/Alqattawi

بتاريخ الجمعة ٢٦ ذو الحجة ١٤٤٧هـ ١٢-٠٦-٢٠٢٦م

الْجُمُعَةُ، السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ، لِعَامِ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَسَبْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ
هَجْرِيًّا، الْمُوَافِقُ لِلثَّانِي عَشَرَ مِنْ يُونِيُو لِعَامِ أَلْفَيْنِ وَسِتَّةٍ وَعِشْرِينَ مِيلَادِيًّا.

عَنَّا صِرُ الْخُطْبَةِ

- أَوَّلًا : وَاقِعْنَا الْمُعَاصِرُ وَتَحَدِّيَاتِ الْإِخْتِرَاقِ الرَّقْمِيِّ وَفِتَنِ الشَّاشَاتِ.
- ثَانِيًا : رَكَائِزُ الْإِسْتِقْرَارِ الْأُسْرِيِّ فِي الْإِسْلَامِ.
- ثَالِثًا : التَّنْطِيقُ الْعَمَلِيُّ لِلرَّفْقِ وَحُسْنِ الْعِشْرَةِ مِنَ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ.
- رَابِعًا : تَشْخِصُ آفَةِ الصَّمْتِ الْأُسْرِيِّ فِي عَصْرِ الْعَزَلَةِ الْإِفْتِرَاضِيَّةِ.
- خَامِسًا : الْآثَارُ الْمُدْمِرَةُ لِعِيَابِ الْحَوَارِ وَأَنْحِرَافِ الْأَبْنَاءِ خَارِجِ الْمَنْزِلِ.
- الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا،
سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَجَعَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ سَكَنًا لِيَذُوقَ طَعْمَ الْإِسْتِقْرَارِ
وَالنَّعِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَنَّانِ الْمَنَّانِ، الَّذِي جَعَلَ الْبُيُوتَ مَأْوَى لِلسَّكِينَةِ وَالْإِطْمِنَانِ، وَحِصْنًا

لِلْفَضِيلَةِ، وَنَهْرًا تَتَدَفَّقُ مِنْهُ جَدَاوِلُ الرَّحْمَةِ وَالْحَنَانِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، جَعَلَ اسْتِفْرَارَ الْأُسْرَةِ وَتَمَاسُكَهَا آيَةً مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِهِ الْبَاهِرَةِ، فَقَالَ فِي كِتَابِهِ الْحَكِيمِ: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الروم: ٢١].

وَأَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ رَبُّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَكَانَ فِي بَيْتِهِ أَكْرَمَ النَّاسِ، وَأَلْيَنَ النَّاسِ، وَأَعْظَمَ النَّاسِ رِفْقًا وَتَحَمُّلاً وَإِحْسَانًا. صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَعَلَى أَصْحَابِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ، صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمِينَ مُتَلَازِمِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَيَا عِبَادَ اللَّهِ، أَوْصِيَكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ، فَهِيَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى الَّتِي لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَهِيَ الْحِصْنُ الْحَصِينُ لِلْإِنْسَانِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ. يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [التحريم: ٦].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْأَعْرَاءُ.. حَدِيثُنَا الْيَوْمَ عَنْ أَثَرِ اسْتِفْرَارِ الْأُسْرَةِ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ، فَأَعِيرُونِي الْقُلُوبَ وَالْأَسْمَاعَ خَاصَّةً، وَإِنَّا لَا نَتَحَدَّثُ الْيَوْمَ عَنْ مَوْضُوعِ هَامِشِيٍّ، بَلْ نَتَحَدَّثُ عَنْ "مَعْرَكَةِ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ"، نَتَحَدَّثُ عَنِ اللَّبَنَةِ الْأُولَى الَّتِي إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ وَتَصَدَّعَتْ أَرْكَانُهَا تَهَاوَى الْبُنْيَانُ وَأَصْبَحَ رَكَامًا تَدْرُوهُ الرِّيَّاحُ؛ إِنَّهَا الْأُسْرَةُ الْمُسْتَقْرَّةُ، رَحِمَ الْإِنْسَانِيَّةَ، وَمَحَضَنَ الْفَضِيلَةَ، وَمَدْرَسَةَ الْأَجْيَالِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ.. إِنَّ النَّازِرَ بَعَيْنَ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةَ، مُتَدَبِّرًا لِآيِ الدِّكْرِ الْحَكِيمِ، يَجِدُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمْ يُسَمِّ الْبَيْتَ مُجَرَّدَ مَأْوَى جُغْرَافِيٍّ؛ فَحِينَمَا أَرَادَ أَنْ يُعْرِفَنَا بِالْبَيْتِ، لَمْ يَقُلْ عَنْهُ إِنَّهُ جُدْرَانٌ حَرَسَانِيَّةٌ، أَوْ زِينَةٌ مَادِّيَّةٌ، بَلْ صَبَّغَهُ بِصِبْغَةِ نَفْسِيَّةٍ رَابِعَةٍ، فَسَمَّاهُ سَكَنًا؛ قَالَ تَعَالَى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا) [النحل: ٨٠]. تَدَبَّرُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْعَمِيقَةَ: "سَكَنًا"! السَّكَنُ لَيْسَ مَكَانًا لِلنَّوْمِ فَقَطْ، وَلَيْسَ مَطْعَمًا لِلْأَجْسَادِ، بَلْ هُوَ الْمَلَأُ الَّذِي تَلَجَأُ إِلَيْهِ النَّفْسُ لِتَضَعَ عَنْ كَاهِلِهَا عَنَاءَ الْحَيَاةِ، وَتَجِدَ فِيهِ الرَّاحَةَ وَالطَّمَانِينَةَ وَالْأَمْنَ.

يَقُولُ الْعَلَّامَةُ الطَّاهِرُ ابْنُ عَاشُورٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي كِتَابِهِ الْفَدَّ "التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ" مُفَسِّرًا لِأَسْرَارِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ: "جَعَلَ فِي ذَلِكَ التَّزَاوُجِ أَنْسًا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ تَزَاوُجًا عَنِيْفًا أَوْ مُهْلِكًا، وَجَعَلَ بَيْنَ كُلِّ زَوْجَيْنِ مَوَدَّةً وَمُحَبَّةً؛ فَالزَّوْجَانِ يَكُونَانِ مِنْ قَبْلِ التَّزَاوُجِ مُتَجَاهِلَيْنِ فَيُصْبِحَانِ بَعْدَ التَّزَاوُجِ مُتَحَابِّينِ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا رَحْمَةً؛ فَهُمَا قَبْلَ التَّزَاوُجِ لَا عَاطِفَةَ بَيْنَهُمَا فَيُصْبِحَانِ بَعْدَهُ مُتَرَاحِمِينَ كَرَحْمَةِ الْأَبُوتِ وَالْأُمُومَةِ".

إِنَّ هَذَا الرِّبَاطَ المُقَدَّسَ هُوَ الَّذِي يَبْنِي الْإِنْسَانَ الصَّالِحَ النَّافِعَ لِنَفْسِهِ وَمُجْتَمَعِهِ وَوَطَنِهِ. لَكِنَّا حِينَمَا نَنْظُرُ إِلَى بَيْتَةِ الْأُسْرَةِ الْيَوْمَ، نَجِدُ فِجَاجًا وَاسِعًا، وَتَحَدِيثَاتٍ جَسِيمَةً تَفْرَعُ النَّوَادِرَ وَالْأَبْوَابَ.

أولاً الواقع المعاصر وتحديات الاختراق الرقمي وفتن الشاشات

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: انظُرُوا يَمَنَةً وَيَسْرَةً فِي وَاقِعِنَا الْمُعَاصِرِ؛ لَقَدْ تَبَدَّلَتِ الْأَحْوَالُ، وَدَخَلَ إِلَى عُمُقِ بِيوتِنَا غَارِ صَامِتٍ، ضَيْفٌ لَا يَمْلِكُ جَسَدًا لَكِنَّهُ يَمْلِكُ سُلْطَانًا عَلَى الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ. لَقَدْ دَخَلَ إِلَى بِيوتِنَا دُونَ اسْتِنْدَانِ ضَيْفٍ ثَقِيلٍ، فَهَبَ الْأَوْقَاتَ، وَشَنَّتِ الْقُلُوبَ، وَهَدَمَ الْجُدْرَانَ الْعَلِيظَةَ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِي حُصُوصِيَّةَ الْعَائِلَةِ. إِنَّهَا وَسَائِلُ التَّوَاصُلِ الْحَدِيثَةِ وَالتَّكْنُولُوجِيَا الرَّقْمِيَّةِ، هَذِهِ التَّكْنُولُوجِيَا الَّتِي كَانَتْ يَرْجِي مِنْهَا تَقْرِيْبُ الْبَعِيدِ، فَقَامَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ بِتَبْعِيدِ الْقَرِيبِ وَزِيَادَةِ الْفَجْوَةِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ!

لَقَدْ تَحَوَّلَتِ الْبُيُوتُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ إِلَى "فَنَادِقٍ" يَجْتَمِعُ فِيهَا النَّاسُ بِأَجْسَادِهِمْ، لَكِنَّ أَرْوَاحَهُمْ مُهَاجِرَةٌ فِي فِضَاءٍ افْتِرَاضِيٍّ سَحِيقٍ! كُلُّ فَرْدٍ مُنْكَبٌّ عَلَى شَاشَتِهِ، يَسْتَقْبِلُ تَفَاقَاتٍ غَرِيبَةً، وَمُقَارَنَاتٍ ظَالِمَةً، تَهْزِمُ الرِّضَا فِي قَلْبِهِ، وَتَزْرَعُ السَّخَطَ فِي نَفْسِهِ.

وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ الشَّاعِرُ حِينَمَا وَصَفَ حَالَ الْبُيُوتِ الَّتِي فَقَدَتْ رُوحَهَا: بَيْتٌ يُقَامُ عَلَى الْحَفَاءِ حِجَارَةً ... لَا دِفْءَ فِيهِ وَإِنْ تَسَامَى سَقْفُهُ إِنَّ الْبُيُوتَ إِذَا خَلَّتْ مِنْ رَحْمَةٍ ... صَارَتْ قُبُورًا وَالْوُدَادُ يُوقِفُهُ

فَكَانَتْ صُورَةَ الْبَيْتِ الْمُعَاصِرِ فِي ظِلِّ هَذَا الْإِخْتِرَاقِ شَيْئًا يَنْدَى لَهُ الْجَبِينُ؛ حَيْثُ يَجْلِسُ الزَّوْجُ فِي زَاوِيَةٍ مِنَ الْعُرْفَةِ مُمَسِّكًا بِهَاتِفِهِ، وَتَجْلِسُ الزَّوْجَةُ فِي الزَّاوِيَةِ الْأُخْرَى غَارِقَةً فِي عَالَمِهَا الْإِفْتِرَاضِيِّ، وَيَقْبَعُ الْأَبْنَاءُ خَلْفَ شَاشَاتِهِمْ صَامِتِينَ، لَا كَلَامَ، لَا نِقَاشَ، لَا حِوَارَ، وَلَا اسْتِمَاعَ! لَقَدْ تَحَوَّلَتِ الْبُيُوتُ إِلَى جُزُرٍ مُنْعَزَلَةٍ، وَمَاتَ الدِّفْءُ الْأُسْرِيُّ عَلَى مَذَابِحِ "الْإِعْجَابَاتِ" وَ"الْمُشَاهَدَاتِ".

وَلَوْ قَلَبْنَا صَفْحَاتِ الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ لَوَجَدْنَا نَصِيحَةً كُتِبَتْ بِمَاءِ الذَّهَبِ خَطَّهَا النَّبِيُّ بِيَدِهِ فِي عُقُولِ أَصْحَابِهِ؛ فَقَدْ حَذَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ مِنَ الْإِنشِغَالِ بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ عَنِ مُتَطَلِّبَاتِ زَوْجَاتِهِمْ وَاخْتِوَاءِ بِيُوتِهِمْ وَأُسْرِهِمْ.

فَهَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ فُرَيْشٍ، وَلَكِنَّهُ اسْتَعْرَقَ كُلِّيًّا فِي الْعِبَادَةِ؛ فَكَانَ يَصُومُ كُلَّ الْأَيَّامِ وَيَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَعَقَلَ عَنِ رِعَايَةِ زَوْجَتِهِ وَبِنَاءِ الْوَدِّ مَعَهَا. فَجَاءَ وَالِدُهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَتَفَقَّدَ أَحْوَالَ الْبَيْتِ الْجَدِيدِ، فَسَأَلَ كَنَّتَهُ (زَوْجَةَ ابْنِهِ): كَيْفَ تَجِدِينَ زَوْجَكَ؟ فَقَالَتْ الزَّوْجَةُ بِأَسْلُوبٍ رَاقٍ وَبَلِيغٍ لَمْ تَجْرَحْ فِيهِ زَوْجَهَا وَلَكِنَّهَا شَخَّصَتِ الْمُسْكَلَةَ: "نِعَمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ! لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا، وَلَمْ يَفْتِشْ لَنَا كَنَفًا مُدًّا

جِنَاهُ" (أَيُّ أَنَّهُ مُسْتَعْرَقٌ فِي الْعِبَادَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ لِرُوحَتِهِ). فَلَمْ يُعْنَفْهَا عَمْرُو، وَلَمْ يَتَجَاهَلْ شَكْوَاهَا، بَلْ ذَهَبَ فَوْرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَشَكَا إِلَيْهِ حَالَ ابْنِهِ. فَاسْتَدْعَى النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرُو وَقَالَ لَهُ لِيُعِيدَ التَّوَازُنَ إِلَى بَيْتِهِ: «أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ صُمْ وَأَفْطِرْ، وَفُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرُوحِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

لَقَدْ فَطِنَ النَّبِيُّ ﷺ هُنَا إِلَى أَهَمِّيَّةِ دَوْرِ الْأَبَاءِ فِي مُتَابَعَةِ اسْتِقْرَارِ بُيُوتِ أَبْنَائِهِمْ بِحِكْمَةٍ وَلَطْفٍ، دُونَ النَّدْخْلِ الْمُفْسِدِ، بَلْ بِالتَّوَجُّهِ السَّيِّدِ الَّذِي يَحْمِي مَشَاعِرَ جَمِيعِ الْأَطْرَافِ. وَهَلْ أَتَاكُمْ نَبَأُ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ الَّذِي أَنْقَذَ بَيْتَ أَبِي الدَّرْدَاءِ مِنْ كَارِثَةِ الْإِنْهِيَارِ؟ فَعِنْدَمَا آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، زَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فِي بَيْتِهِ، فَرَأَى زَوْجَتَهُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً (لَابِسَةً ثِيَابًا قَدِيمَةً وَلَا تَهْتَمُّ بِمَظْهَرِهَا)، فَسَأَلَهَا عَنْ حَالِهَا، فَقَالَتْ: "إِنَّ أَخَاكَ أَبَا الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا؛ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ!" فَلَمْ يَسْكُتْ سَلْمَانُ عَنْ هَذَا الْخَلَلِ الَّذِي يَهْدِدُ اسْتِقْرَارَ الْأُسْرَةِ وَجِدَارَهَا الْعَاطِفِيَّ. فَلَمَّا جَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَصَنَّعَ لَهُ طَعَامًا، قَالَ لَهُ سَلْمَانُ: كُلْ، قَالَ: إِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِأَكْلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ. فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: نَمْ، فَنَامَ. ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: نَمْ، فَنَامَ. فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: فَمِ الْآنَ، فَصَلِّ يَا. ثُمَّ قَالَ لَهُ سَلْمَانُ قَوْلَتَهُ الذَّهَبِيَّةَ الشَّهِيرَةَ الَّتِي تَكْتَبُ بِمَاءِ الذَّهَبِ فِي فِجَةِ الْأُسْرَةِ: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِلْأَهْلِ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ». فَاتَّيَا النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِصْدَاقًا لِرُوحِ سَلْمَانَ: «صَدَقَ سَلْمَانُ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

فَالْإِسْلَامُ يَا سَادَةَ لَا يَرْضَى بِالتَّيِّبِ الَّذِي يَهْدِمُ الْبُيُوتَ أَوْ يُجَفِّفُ الْعَوَاطِفَ، بَلْ إِنَّ إِعْطَاءَ الزَّوْجَةِ وَالْأَبْنَاءِ حَقَّهُمْ مِنَ الْوَقْتِ وَالْإِهْتِمَامِ هُوَ عَيْنُ الْعِبَادَةِ وَالْقُرْبَةِ إِلَى اللَّهِ. بَلْ وَالْأَخْطَرُ مِنْ ذَلِكَ، عِبَادَةُ اللَّهِ، هُوَ مَا تَبْتُهُ هَذِهِ الْوَسَائِلُ مِنْ سُمُومٍ تَسْتَهْدِفُ رِضَا الْإِنْسَانِ عَنْ مَعِيشَتِهِ؛ حَيْثُ تُعْرَضُ الْحَيَاةُ عَبْرَ نَوَافِذِ بَعْضِ الْمَشَاهِيرِ فِي أَبْهَى صُورِهَا الْمُنتَقَاةِ، الَّتِي تُخْفِي الْمَتَاعِبَ وَتُظْهِرُ الزَّيْنَةَ وَالرِّفَاهِيَّةَ الْكَاذِبَةَ. فَيَدْخُلُ الطِّفْلُ، وَتَدْخُلُ الزَّوْجَةُ، وَيَدْخُلُ الزَّوْجُ فِي مُقَارَنَاتٍ مُسْتَمِرَّةٍ بَيْنَ وَاقِعِهِمُ الْبَسِيطِ وَبَيْنَ تِلْكَ الصُّورِ الْمُرِيقَةِ! فَتَضَعُفُ فِي قَلْبِهِ مَشَاعِرُ الرِّضَا، وَيَرْتَفِعُ سَفْفُ تَوَقُّعَاتِهِ، وَيَحِلُّ السَّخَطُ مَحَلَّ الْقَنَاعَةِ، وَيَبْدَأُ النِّزَاعُ وَالْخِصَامُ لِأَجْلِ مَطَالِبِ مَادِيَّةٍ لَا تَنْتَهِي!

وَهُنَا نَتَذَكَّرُ قَوْلَ الشَّاعِرِ الْحَكِيمِ: رَأَيْتُ قَنَاعَةَ الْإِنْسَانَ حِصْنًا ... تَقِيهِ مَذَلَّةَ الطَّمَعِ الْعَنِيفِ وَإِنَّ بَيْتًا يَقُومُ عَلَى الرِّضَا ... لِأَجْمَلٍ مِنْ مَحَارِيبِ السُّقُوفِ وَكَمْ مِنْ كِسْرَةٍ فِي الْبَيْتِ تَصْفُو ... بِحُبِّ لَيْسَ يُشْرَى بِالْأُلُوفِ

لَقَدْ حَدَرْنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ هَذَا التَّطَلُّعِ الْمُهْلِكِ لِلنُّفُوسِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]. وَيَأْتِي التَّوْجِيهُ النَّبَوِيُّ الْحَكِيمُ لِيُعِيدَ لِلْأُسْرَةِ تَوَارُثَهَا وَأَمْنَهَا، إِذْ قَالَ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «انظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ».

ثانياً: رَكَائِزُ الْإِسْتِقْرَارِ الْأُسْرِيِّ فِي الْإِسْلَامِ

وَلَكِنْ كَيْفَ نَحَقُّ هَذَا الْإِسْتِقْرَارَ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ؟ إِنَّ لِإِسْتِقْرَارِ الْأُسْرَةِ رَكَائِزَ وَعَوَامِلَ شَرَعَهَا الدِّينُ الْحَنِيفُ؛ فَلِكِي نَحْمِي سَفِينَةَ الْأُسْرَةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمُوجِ الْعَاتِيَةِ، فَقَدْ وَضَعَ لَنَا الشَّرْعُ الْحَنِيفُ خَارِطَةَ طَرِيقٍ وَاضِحَةً الْمَعَالِمِ، تَقُومُ عَلَى رَكَائِزٍ مَتِينَةٍ:

الرَّكِيْزَةُ الْأُولَى: حُسْنُ الْإِخْتِيَارِ وَالتَّقَارُبِ الْفِكْرِيِّ وَالكِفَاءَةِ الْبِنَاءِ الصَّحِيحِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَسَاسٍ قَوِيٍّ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ الْإِسْلَامُ مَعْيَارَ الْإِخْتِيَارِ قَائِمًا عَلَى الدِّينِ وَالْخُلُقِ وَصَلَاحِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسْبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاطْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرَبَّتْ بِدَاكِ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). يَقُولُ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ: "الصَّحِيحُ فِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ بِمَا يَفْعَلُهُ النَّاسُ فِي الْعَادَةِ؛ فَإِنَّهُمْ يَقْصِدُونَ هَذِهِ الْخِصَالَ الْأَرْبَعِ، وَأَخْرَجَهَا عَنْهُمْ "ذَاتُ الدِّينِ"؛ فَاطْفَرُ أَنْتِ أَيُّهَا الْمُسْتَرْشِدُ بِذَاتِ الدِّينِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِذَلِكَ، وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى مُصَاحَبَةِ أَهْلِ الدِّينِ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُمْ يَسْتَفِيدُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَبَرَكَاتِهِمْ وَحُسْنِ طَرَائِقِهِمْ وَيَأْمَنُ مِنَ الْمَفْسَدَةِ مِنْ جِهَتِهِمْ".

وَكَذَلِكَ فِي جَانِبِ الرَّجُلِ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفَعَّلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ» (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ). وَمَعَ الدِّينِ، لَا بُدَّ مِنْ مُرَاعَاةِ الْكِفَاءَةِ وَالتَّقَارُبِ الْفِكْرِيِّ وَالتَّقَافِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ بَيْنَ الشَّرِيكَيْنِ. فَالزَّوْاجُ لَيْسَ رِحْلَةً عَاطِفَةً مُوقَّتَةً، بَلْ هُوَ شَرَاكَةٌ عُمُرٌ، وَكُلَّمَا تَقَارَبَتْ أَنْمَاطُ التَّفَكِيرِ وَالبَيْئَةِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، سَهَّلَ الْحَوَارُ، وَقَلَّتِ الْفَجَوَاتُ، وَنَشَأَ الْإِبْنَاءُ فِي بَيْئَةِ أُسْرِيَّةٍ هَادِيَّةٍ وَمُتَزَنَةٍ؛ لِأَنَّ زَمَانَنَا هَذَا يَتَطَلَّبُ لُغَةً مُشْتَرَكَةً بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ لِمُوَاجَهَةِ طُوفَانِ الْأَفْكَارِ الْوَافِدَةِ عَبْرَ الْإِنْتِرْنِتِ.

الرَّكِيْزَةُ الثَّانِيَّةُ: الْفَهْمُ الصَّحِيحُ لِلْقَوَامَةِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي أُسِيءَ فَهْمُهَا لَدَى كَثِيرٍ مِنَ الرَّجَالِ فِي عَصْرِنَا، مَفْهُومُ "الْقَوَامَةِ" الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء].

لَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ مَنْ ادَّعَى الْفَهْمَ أَنَّ الْقِيَامَةَ رُحْصَةٌ لِلتَّسَلُّطِ وَالْقَهْرِ، وَالْإِسْتِبْدَادِ بِالرَّأْيِ، وَالتَّقْلِيلِ مِنْ كَرَامَةِ الْمَرْأَةِ! وَهَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ هُوَ عَيْنُ الْإِنْحِرَافِ عَنِ الْجَادَةِ.

الْقِيَامَةُ فِي الْإِسْلَامِ تَكْلِيفٌ لَا تَشْرِيفٌ، وَمَسْئُولِيَّةٌ لَا تَسَلُّطٌ. يَقُولُ الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ سَيِّدُ طَنْطَاوِي -شَيْخُ الْأَزْهَرِ الرَّاحِلِ- فِي تَفْسِيرِهِ: "الرِّجَالُ يَقُومُونَ عَلَى شُئُونِ النِّسَاءِ بِالْحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ وَالنَّفَقَةِ وَالتَّادِيْبِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا تَقْتَضِيهِ مَصْلَحَتُهُنَّ". وَيَقُولُ الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ سَعِيدُ رَمَضَانَ الْبُوطِي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "الْقِيَامَةُ عَلَى الْأُسْرَةِ فِي نِظَامِ الْإِسْلَامِ وَشَرَعِهِ، قِيَامَةٌ رِعَايَةٌ وَإِدَارَةٌ وَلَيْسَتْ قِيَامَةٌ هَيْمَنَةٌ وَتَسَلُّطٌ.. ثُمَّ إِنَّهَا لَيْسَتْ عُنْوَانًا عَلَى أَفْضَلِيَّةٍ ذَاتِيَّةٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَتَمَيَّزُ بِهَا الْأَمِيرُ أَوْ الْمُدِيرُ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عُنْوَانًا عَلَى كِفَاةٍ يَتَمَتَّعُ بِهَا الْقَائِمُ بِأَعْبَاءِ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةِ".

الرَّكِيْزَةُ الثَّلَاثَةُ: حِفْظُ أَسْرَارِ الْبُيُوتِ وَحِمَايَةُ الْخُصُوصِيَّةِ إِنَّ هَدْمَ الْأَسْوَارِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِلْبُيُوتِ هُوَ بَدَايَةُ الْخَرَابِ. مِنْ أَكْبَرِ مَصَائِبِ "السُّوشِيَالِ مِيدِيَا" فِي زَمَانِنَا، أَنَّ بَعْضَ الْأَزْوَاجِ وَالزَّوْجَاتِ جَعَلُوا حَيَاتَهُمُ الْخَاصَّةَ كِتَابًا مَفْتُوحًا لِلْقَاصِي وَالذَّانِي! حَتَّى أَصْبَحَ التَّهَاوُنُ فِي حِفْظِ أَسْرَارِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ ظَاهِرَةً مُفْلَقَةً فِي ظِلِّ انْتِشَارِ وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ؛ حَيْثُ يَقُومُ بَعْضُ النَّاسِ بِنَشْرِ جُزْئِيَّاتِ حَيَاتِهِمْ، أَوْ نَقْلِ خِلَافَاتِهِمْ إِلَى مَنْصَّاتِ الْإِنْتِرْنِتِ طَلَبًا لِلْمَشُورَةِ مِنْ مَجَاهِيلٍ، أَوْ رَغْبَةً فِي كَسْبِ تَعَاظِفٍ وَهَمِيٍّ، فَتَتَبَدَّدُ الْخُصُوصِيَّةُ وَتَزُولُ الثِّقَّةُ.

بَلْ وَصَلَ الْأَمْرُ أَنَّهُمْ يُصَوِّرُونَ طِعَامَهُمْ، وَخِلَافَاتِهِمْ، وَتَفَاصِيلَ بُيُوتِهِمْ طَمَعًا فِي "اعْجَابٍ" أَوْ "مُتَابَعَةٍ". وَهَذَا خَرَابٌ مُسْتَعَجَلٌ؛ فَبُيُوتُكُمْ أَمَانَةٌ، وَأَسْرَارُهَا مُقَدَّسَةٌ، فَلَا تَجْعَلُوهَا كَلًّا مُبَاحًا لِأَعْيُنِ الْحَاسِدِينَ وَالْمُتَرَبِّصِينَ.

اسْمَعُوا إِلَى تَحْذِيرِ الْمُصْطَفَى ﷺ حِينَمَا يَقُولُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ مِنْ أَسْرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا». الْبُيُوتُ أَمَانَاتٌ، وَالْأَسْرَارُ حُقُوقٌ مُصَانَةٌ، وَمَتَى هُتِكَتْ سُتُورُ الْبُيُوتِ، دَخَلَهَا الشَّيْطَانُ بِالْإِفْسَادِ وَالتَّدْمِيرِ.

ثَالِثًا: التَّطْبِيقُ الْعَمَلِيُّ لِلرَّفْقِ وَحَسَنِ الْعِشْرَةِ مِنَ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: لَيْسَ لَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أُسْوَةٌ أَكْمَلُ وَلَا أَجْمَلُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَكَيْفَ كَانَ بَيْتُ النَّبِيِّ ﷺ؟ كَانَ قَمَّةً فِي الرَّفْقِ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرَّفْقَ» (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ). لَقَدْ كَانَ ﷺ تَجْسِيدًا حَيًّا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. يَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي تَفْسِيرِهِ: "أَيُّ طَيِّبُوا أَقْوَالَكُمْ لَهُنَّ، وَحَسِّنُوا أَفْعَالَكُمْ

وَهَيَّاتِكُمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِكُمْ، كَمَا تُحِبُّ ذَلِكَ مِنْهَا فَافْعَلْ أَنْتَ بِهَا مِثْلَهُ.. وَكَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ ﷺ أَنَّهُ جَمِيلُ الْعِشْرَةِ، دَائِمُ الْبِشْرِ، يُدَاعِبُ أَهْلَهُ، وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ، وَيُوسِعُهُمْ نَفَقَتَهُ، وَيُضَاحِكُ نِسَاءَهُ". فَتَعَالَوْا لِنَسْتَعْرِضْ صُورًا وَاقِعِيَّةً مِنْ بَيْتِ النَّبُوَّةِ، لِنَرَى كَيْفَ يُبْنَى الْإِسْتِقْرَارُ بِالرَّحْمَةِ: ١. التَّلَطُّفُ وَالْمُعَاوَنَةُ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قِصَّةِ قُفُولِهِمْ مِنْ خَيْبَرَ، قَالَ: «فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَوِّي لَهَا وَرَاءَهُ بَعَاءَةً، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ، فَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ حَتَّى تَرْكَبَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ). أَيْنَ رِجَالُ زَمَانِنَا مِنْ هَذَا التَّوَاضُعِ وَالْإِكْرَامِ لِلْمَرْأَةِ؟

٢. الْمُدَاعَبَةُ وَإِدْخَالُ السُّرُورِ: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، قَالَتْ: «فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلِي، فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَقَالَ: هَذِهِ بِنَاتُكَ السَّبَقَةِ» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ).

٣. الْإِحْتِوَاءُ عِنْدَ الْبُكَاءِ: عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ صَفِيَّةُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَهَا فَأَبْطَأَتْ فِي الْمَسِيرِ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي وَتَقُولُ: حَمَلْتَنِي عَلَى بَعِيرِ بَطِيءٍ، «فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ بِيَدَيْهِ عَيْنَيْهَا وَيُسَكِّتُهَا» (رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي السُّنَنِ الْكُبْرَى بِسَنَدٍ صَحِيحٍ).

٤. التَّغْيِيرُ الصَّرِيحُ عَنِ الْحُبِّ: عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ؟ قَالَ لَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: «عَائِشَةُ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَكَانَ ﷺ يَقُولُ لَهَا حِينَئِذٍ تَسْأَلُهُ: كَيْفَ حُبُّكَ لِي؟ يَقُولُ: «كَعُقْدَةِ الْحَبْلِ»، فَتَسْأَلُهُ بَعْدَ زَمَنِ: كَيْفَ الْعُقْدَةُ؟ فَيَقُولُ: «عَلَى حَالِهَا».

إِنَّ هَذَا الرَّفْقَ هُوَ طَوْقُ النَّجَاةِ لِلْبُيُوتِ؛ فَأَيْنَ هَذَا الرَّفْقِ الْيَوْمَ فِي بُيُوتٍ يُهَدَّدُ فِيهَا الزَّوْجُ زَوْجَتَهُ بِالطَّلَاقِ لِأَنْفَقِهِ السَّبَبِ؟ أَيْنَ الرَّفْقِ حِينَئِذٍ نَرَى النَّبِيَّ ﷺ فِي جَلَالَةِ قَدْرِهِ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ لِتَضَعُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ حَتَّى تَرْكَبَ، وَيُسَابِقُ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ فَيَسْبِقُهَا وَتَسْبِقُهُ وَيَقُولُ مُدَاعِبًا: «هَذِهِ بِنَاتُكَ السَّبَقَةِ»؟ هَكَذَا تُبْنَى الْحَيَاةُ، بِالْكَلِمَةِ الطَّايِبَةِ وَالتَّلَطُّفِ.

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا رُزِقَ أَهْلُ بَيْتِ الرَّفْقِ إِلَّا نَفَعَهُمْ، وَلَا صُرِفَ عَنْهُمْ إِلَّا ضَرَّهُمْ». وَمَنْ هُنَا كَانَ التَّعَافُلُ وَالتَّعَافُرُ سَيِّدَ الْأَخْلَاقِ فِي بِنَاءِ الْإِسْتِقْرَارِ. يَقُولُ عَثْمَانُ بْنُ زَائِدَةَ: «الْعَافِيَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ؛ تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي التَّعَافُلِ»، فَحَدَّثْتُ بِهِ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ فَقَالَ: «الْعَافِيَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ؛ كُلُّهَا فِي التَّعَافُلِ». وَمَا أَجْمَلَ التَّوْجِيهَ الرَّبَّانِيَّ الْجَامِعَ عِنْدَ وُقُوعِ الْخِلَافِ: (وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [البقرة: ٢٣٧].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَنَفَعَنِي وَإِيَّاكُمْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ،
أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ.
الْخُطْبَةُ الثَّانِيَّةُ: خُطُورَةُ غِيَابِ التَّوَاصُلِ بَيْنَ الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ (الْجِدَارُ الصَّامِتُ)

رابعاً: تَشْخِيسُ آفَةِ الصَّمْتِ الْأُسْرِيِّ فِي عَصْرِ الْعَزَلَةِ الْإِفْتِرَاضِيَّةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ
تَسْلِيمًا كَثِيرًا؛ أَمَّا بَعْدُ:

فِيَا عِبَادَ اللَّهِ، اعْلَمُوا أَنَّ التَّحَدِّيَّ الْأَكْبَرَ الَّذِي يُوَاجَهُ أَوْلَادَنَا فِي هَذَا الْعَصْرِ، لَيْسَ فَقَطْ مَا
يَرُونَهُ فِي الشَّارِعِ، بَلْ هُوَ ذَلِكَ "الْجِدَارُ الصَّامِتُ" الَّذِي يَرْتَفِعُ كُلَّ يَوْمٍ دَاخِلَ الْبُيُوتِ بَيْنَ
الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ! لَقَدْ أُصِيبَتِ الْأُسْرَةُ بِمَا يُسَمَّى بِـ "الْخَرَسِ الْأُسْرِيِّ"؛ حَيْثُ تَمُوتُ الْكَلِمَاتُ،
وَتَغِيْبُ اللَّقَاءَاتُ، وَيَعِيشُ كُلُّ فَرْدٍ فِي قَوْعَتِهِ الرَّقْمِيَّةِ الْمُنْعَزَلَةِ.

إِنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ، وَخَاصَّةً نَفْسِيَّةَ الطِّفْلِ أَوْ الشَّابِّ فِي مَرَحَلَةِ النُّمُوِّ، تَحْتَاجُ إِلَى "الْإِنْصَاتِ"
أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهَا إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى مَدْرَسَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، نَجِدُ أَنَّ
التَّرْبِيَّةَ قَامَتْ عَلَى جُسُورِ الْحَوَارِ الرَّاقِي وَالْمُتَبَادَلِ. تَدَبَّرُوا مَعِيَ حِوَارَ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ
الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ؛ حِينَمَا جَاءَهُ الْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ الثَّقِيلُ بِالذَّبْحِ، لَمْ يَلْجَأْ إِلَى
الْقَهْرِ أَوْ فَرَضِ الرَّأْيِ عِنْوَةً، بَلْ بَنَى جِسْرًا مِنَ الْحَوَارِ النَّفْسِيِّ الْعَمِيقِ، فَقَالَ: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي
أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢]. فَمَادَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ؟ جَاءَ
الرَّدُّ بَيِّنِينَ ثَابِتٍ نَبَعٌ مِنْ ذَلِكَ الْإِخْتِوَاءِ: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّابِرِينَ﴾.

وَتَأَمَّلُوا وَصَايَا لُقْمَانَ الْحَكِيمِ لِابْنِهِ، كَيْفَ يَفْتَحُ قَلْبَ ابْنِهِ بِالنِّدَاءِ الْمَشْحُونِ بِالْمَحَبَّةِ وَالْخَوْفِ
الصَّادِقِ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾
[لقمان: ١٣]. ثُمَّ يُكْرِرُ: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى
مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

يَقُولُ الْإِمَامُ الْفَرُطِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَاتِ: "وَصَّى ابْنَهُ بِأَعْظَمِ الطَّاعَاتِ وَهِيَ الصَّلَاةُ
وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهَذَا إِنَّمَا يُرِيدُ بِهِ بَعْدَ أَنْ يَمْتَثِلَ ذَلِكَ هُوَ فِي نَفْسِهِ
وَيَزْدَجِرُ عَنِ الْمُنْكَرِ.. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ يَقْتَضِي حِصْنًا عَلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ
وَإِنْ نَالَكَ ضَرَرٌ؛ فَهُوَ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْمُغْيِرَ يُؤْذِي أَحْيَانًا.. وَقِيلَ: أَمْرُهُ بِالصَّبْرِ عَلَى شِدَائِدِ
الدُّنْيَا كَالْأَمْرَاضِ وَغَيْرِهَا، وَالْأَخْرَجُ مِنَ الْجَزَعِ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا قَوْلٌ
حَسَنٌ لِأَنَّهُ يَعْهُمُ".

خامسا : الآثارُ المدمرةُ لغيابِ الحِوارِ وانحرافِ الأبناءِ خارجَ المنزلِ

أَيُّهَا الآبَاءُ، أَيُّهَا الأُمَّهَاتُ: إِنَّ القَاعِدَةَ النَّفْسِيَّةَ وَالوَاقِعِيَّةَ تَقُولُ: إِنَّ الابْنَ أَوْ البِنْتَ إِذَا لَمْ يَجِدَا أَذْنَا مُصْغِيَّةً دَاخِلَ البَيْتِ، سَيَبْحَثَانِ عَن آذَانٍ أُخْرَى خَارِجَهُ! حِينَمَا يَعُودُ الشَّابُّ إِلَى مَنْزِلِهِ مُثْقَلًا بِأَسْئَلَةِ الحَيَاةِ، أَوْ بِشُبُهَاتٍ يَطْرَحُهَا أَهْلُ السُّوءِ عَبْرَ الإِنْتِرْنِتِ، فَيَجِدُ آبَاهُ مَشْغُولًا بِهَاتِفِهِ أَوْ تِجَارَتِهِ، وَيَجِدُ أُمَّهُ غَارِقَةً فِي شَأْسَتِهَا، فَيَقَابِلُ بِالصَّدِّ أَوْ التَّسْفِيهِ، هُنَا تَنْقَطِعُ الجُسُورُ. فَأَيْنَا يَذْهَبُ هَذَا العُلاَمُ؟ وَأَيْنَ تَلْجَأُ هَذِهِ الفِتَاةُ؟ سَيَلْجَأُونَ إِلَى فِضَاءِ الإِنْتِرْنِتِ المَفْتُوحِ بِلا رَقَابَةٍ، إِلَى عُرْفِ الدَّرْدَسَةِ المَجْهُولَةِ، وَمَجْمُوعَاتِ التَّلْجِرَامِ أَوْ الفَيْسبُوكِ المُشْبَهَةِ. وَهُنَاكَ يَفْجَعُ صَيَادُو العُقُولِ وَالقُلُوبِ! يَتَلَقَّفُهُم أَهْلُ الأَهْوَاءِ؛ فَأَمَّا أَنْ يَسِيرُوا بِهِمْ فِي دَرْبِ الانْحِرَافِ الفِكْرِيِّ وَالشُّبُهَاتِ الَّتِي تَهْدِمُ العَقِيدَةَ، وَإَمَّا أَنْ يَقْعُوا فِي مُسْتَنْقَعِ الشَّهَوَاتِ، وَالْمُحَدَّرَاتِ، وَالرَّذِيلَةِ.

كَمْ هِيَ مُؤَلِمَةٌ تِلْكَ القِصَصُ الوَاقِعِيَّةُ الَّتِي نَسْمَعُهَا فِي مَحَاكِمِنَا وَمُجْتَمَعَاتِنَا! فَتَاةٌ تَنْزَلِقُ فِي حَبَائِلِ ذَنْبٍ بَشَرِيٍّ خَدَعَهَا بِكَلِمَاتٍ غَزَلْ عَبْرَ الشَّاشَاتِ، فَقَطَّ لِأَنَّهَا عَانَتْ مِنْ جَفَاءِ عَاطِفِيٍّ دَاخِلَ بَيْتِهَا، وَلَمْ تَسْمَعْ يَوْمًا كَلِمَةً حَانِيَةً مِنْ أَبِيهَا أَوْ أُمِّهَا! وَشَابٌّ يَسْقُطُ فِي حُفْرَةِ الإِدْمَانِ لِأَنَّ بَيْتَهُ كَانَ حَلْبَةً لِلصَّرَاعِ وَالنِّزَاعِ المُسْتَمِرِّ بَيْنَ الوَالِدَيْنِ، فَهَرَبَ مِنَ الجَحِيمِ المَنْزَلِيِّ إِلَى الهَلَاكِ الخَارِجِيِّ!

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمَلْنَا المَسْئُولِيَّةَ كَامِلَةً؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَن رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَن رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَن رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَن رَعِيَّتِهَا...» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

الرَّعَايَةُ يَا حَضْرَاتِ الآبَاءِ لَيْسَتْ أَنْ تَكُونَ بَنًا لِتَوْفِيرِ المَالِ وَشِرَاءِ الأَجْهَرَةِ فَقَطَّ، بَلْ إِنَّ أَعْظَمَ نَفَقَةٍ تُنْفِقُهَا هِيَ أَنْ تُنْفِقَ مِنْ وَقْتِكَ لِتَجْلِسَ مَعَ أَوْلَادِكَ، تَسْمَعُهُمْ، تَحْتَوِيهِمْ، وَتَكُونَ لَهُمْ الصَّدِيقَ قَبْلَ الرَّقِيبِ. وَكَانَ التَّابِعِيُّ الجَلِيلُ سَعِيدُ بْنُ المُسَيَّبِ يُدْرِكُ أَنَّ صَلَاحَهُ لَهُ أَثَرٌ فِي حِفْظِ دَرِّيَّتِهِ، فَكَانَ يَقُولُ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ، إِنِّي لِأَزِيدُ فِي صَلَاتِي مِنْ أَجْلِكَ، رَجَاءً أَنْ أُحْفَظَ فِيكَ»، ثُمَّ يَتَلَوُ قَوْلَهُ تَعَالَى: (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) [الكهف: ٨٢].

وَجُوبُ اسْتِمْرَارِ الصِّلَةِ وَالْبِرِّ رَعْمَ الإِسَاءَةِ وَالخِلَافَاتِ

عِبَادَ اللَّهِ: قَدْ يَقَعُ الخِلَافُ فِي البُيُوتِ، وَهَذَا مِنْ طَبِيعَةِ البَشَرِ، وَقَدْ يُسِيءُ الآبُ إِلَى ابْنِهِ فِي لَحْظَةٍ غَضَبٍ، أَوْ يَجْفُو الابْنَ عَلَى أَبِيهِ، لَكِنَّ الشَّرْعَ الحَنِيفَ وَضَعَ قَانُونًا صَارِمًا: لَا تَقْطَعُوا حِبَالَ الصِّلَةِ، وَلَا تَهْدِمُوا جُسُورَ البِرِّ مَهْمَا كَانَتْ الإِسَاءَةُ!

لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَمُصَاحَبَتَيْهِمَا بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى وَإِنْ بَدَلَا جُهِدَهُمَا لِيَسُوقَا ابْنَهُمَا إِلَىٰ أَعْظَمِ جَرِيمَةٍ فِي الْوُجُودِ وَهِيَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ! قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]. تَدَبَّرُوا لَفْظَةَ: ﴿مَعْرُوفًا﴾! الْمَعْرُوفُ هُوَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ فِعْلٍ يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ حُسْنُهُ. أَيُّ تَخْفِضٍ لَهُمَا الْجَنَاحَ، وَتُحْسِنُ الْكَلَامَ مَعَهُمَا، وَلَا تَرْفَعُ صَوْتَكَ بِحَضْرَتَيْهِمَا، وَتَصِلُهُمَا بِمَالِكَ، وَتَظَلُّ خَادِمًا لَهُمَا مَا حَبِيبٌ.

اسْمَعُوا إِلَىٰ هَذَا النَّمُودَجِ الرَّائِعِ مِنَ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ: قَالَتِ السَّيِّدَةُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «قَدِمْتُ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَبِيهَا، فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، صِلِي أُمَّكَ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَعَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبْرُ؟ قَالَ: «أُمَّكَ، ثُمَّ أُمَّكَ، ثُمَّ أُمَّكَ، ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَأَلْأَقْرَبَ» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ).

إِذَنْ، عِبَادَ اللَّهِ، الْإِسْتِقْرَارُ الْأُسْرِيُّ هُوَ جِهَادٌ مُسْتَمِرٌّ، يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَحَوَارٍ، وَرَفْقٍ، وَتَعَاوُلٍ عَنِ الزَّلَّاتِ. وَمَتَى صَلَحَتْ بُيُوتُنَا، صَلَحَتْ أُمَّتُنَا، وَغَدَا مُجْتَمَعُنَا حِصْنًا مَنِيعًا لَا تَخْتَرِقُهُ الْفِتْنُ وَلَا تَرَعِزُهُ الْأَهْوَاءُ.

• اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لَنَا أَمْرَنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي بُيُوتِنَا، وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنْ فَيْضِ سَكِينَتِكَ وَرَحْمَتِكَ مَا تَجْمَعُ بِهِ قُلُوبُنَا.

• اللَّهُمَّ احْفَظْ أَسْرَنَا وَبُيُوتَنَا مِنْ فِتَنِ الشَّائِطَاتِ وَوَسَائِلِ التَّوَاصُلِ، وَاجْعَلْهَا بُيُوتًا لِلطَّاعَةِ وَالذِّكْرِ وَالْمَحَبَّةِ الشَّرْعِيَّةِ.

• اللَّهُمَّ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِ الْأَرْوَاجِ وَالزَّوْجَاتِ، وَاجْعَلْ بَيْنَهُمُ الْمَوَدَّةَ وَالرَّحْمَةَ سَيِّدَةَ الْمَوْقِفِ، وَاعْصِمْهُمْ مِنَ الشِّقَاقِ وَالْفِرَاقِ.

• اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا، وَاهْدِهِمْ سُبُلَ الرِّشَادِ، وَاعْصِمْهُمْ مِنْ دَعَوَاتِ الْإِنْحِرَافِ وَالْإِلْحَادِ وَمُسْتَنْقَعَاتِ الرِّذِيلَةِ.

• اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا لِأَوْلَادِنَا آدَانًا صَاغِيَةً، وَقُلُوبًا حَانِيَةً، وَوَقِّفْنَا لِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيكَ عَنَّا.

• اللَّهُمَّ احْفَظْ مِصْرَنَا الْعَالِيَةَ، وَاجْعَلْهَا رَايَةً لِلْأَمْنِ وَالْأَمَانِ وَالْإِسْتِقْرَارِ، وَوَقِّقْ قَادَتَهَا وَعُلَمَاءَهَا لِمَا فِيهِ خَيْرُ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ.

عِبَادَ اللَّهِ: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [النحل: ٩٠]، فَادْكُرُوا اللَّهَ الْعَظِيمَ الْجَلِيلَ يَذْكُرْكُمْ، وَاشْكُرُوا
عَلَى نِعْمِهِ يَزِدْكُمْ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ.